إمارات عربية خالدة في التاريخ "إمارة هرمز إنموذجاً"
دراسة تاريخية للدور السياسي والاقتصادي في الخليج العربي

الاستاذ الدكتور/ زهير قاسم محمد السامرائي
كلية الاداب – جامعة سامراء

الملخص
تعد إمارة هرمز واحدة من أقوى الإمارات الاقتصادية التي ظهرت في منطقة الخليج العربي خلال القرن العاشر الميلادي ، والتي اشتهرت بالتجارة وبالثراء الكبير، فهي الميناء البحري لتجارة منطقة كرمان وسيستان والساحل الغربي للخليج العربي من الإحساء شمالاً إلى رأس مندم جنوباً ، كما عُدت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية في الخليج وأكبر منافس لجزيرة قيس ، وذلك لأنها تحتل موقعاً سوقياً على المضيق الذي يربط خليج عمان بالخليج العربي ، ويبلغ عُرْض هذا المضيق نحو أربعين ميلاً ، ومنها جاءت تسمية مضيق هرمز.ونتيجة للمكانة الاقتصادية التي تمتعت بيها اطلق عليها لؤلؤة الشرق .فضلاً عن الدور الاقتصادي للامارة كان لها دوراً سياسياً كبيراً في منطقة الخليج العربي اذ استطاعت من قيادة حركة المقاومة العربية ضد الاستعمار البرتغالي الذي جاء للمنطقة في بداية القرن السادس عشر والتحديد عام 1507 ،اذ شكلت هرمز المحور الاساسي والمهم في حركة المقاومة فكانت حلقة الارتباط والمحرك مابين مدن الخليج العربي المناهضة للاستعمار , لان اغلب المدن كانت تابعة سياسياً لهرمز قبل مجيء الاستعمار البرتغالي للمنطقة هدفها انهاء السلوك الهمجي والوحشي التي مارسها البرتغاليون ضد سكان الخليج .استطاعت هرمز تنظيم اكثر من ثورة كان اولها ثورة الاهالي عام 1521 التي كبدت البرتغاليين خسائر كبيرة فضلاًعن احداث 1522 و1523 وثورة 1526 وكذلك 1529 التي اظهرت الدور الكبير لهرمز في قيادة حركة المقامة العربية في الخليج العربي والحاق خسائر كبيرة في القوات البرتغالية وهذا ما سنراه بشكل مفصل في البحث .

إمارة هرمز ودورها السياسي والاقتصادي في الخليج العربي

المقدمة

تعد إمارة هرمز واحدة من أقوى الإمارات الاقتصادية التي ظهرت في منطقة الخليج العربي خلال القرن العاشر الميلادي ، والتي اشتهرت بالتجارة وبالثراء الكبير، فهي الميناء البحري لتجارة منطقة كرمان وسيستان والساحل الغربي للخليج العربي من الإحساء شمالاً إلى رأس مندم جنوباً ، كما عُدت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية في الخليج وأكبر منافس لجزيرة قيس ، وذلك لأنها تحتل موقعاً سوقياً على المضيق الذي يربط خليج عمان بالخليج العربي ، ويبلغ عُرْض هذا المضيق نحو أربعين ميلاً ، ومنها جاءت تسمية مضيق هرمز.

أولاً: نشوء إمارة هرمز

اتسمت الأوضاع العامة في منطقة الخليج العربي قبيل ظهور مدينة هرمز التجارية بسيادة مطلقة لمدينة سيراف التجارية[1]، الأمر الذي دعا بعض الأسر العربية ذات الطابع التجاري إلى التفكير في إنشاء مراكز تجارية جديدة على غرار المراكز الشاخصة في سيراف ، فتم اختيار المدينة المجاورة لها وهي هرمز[2] ، ليُنقَل إليها النشاط التجاري وبصورة سريعة ، إذ قامت فيها إمارة عربية ينتسب حكّامها إلى أسرة عربية نزحت من اليمن إلى الساحل الشرقي للخليج العربي في نهاية القرن العاشر الميلادي[3] ، وتشير الروايات إلى أن محمد درم كوب هو المؤسس الحقيقي لإمارة هرمز في نهاية القرن الحادي عشر مستندين في ذلك إلى العملة التي سكّها باسمه في القرن الثاني عشر[4].

شهدت مدينة هرمز خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ازدهاراً كبيراً جعلها تتفوق على مدينة سيراف وأصبحت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية في الخليج العربي ، وذلك لكونها تحتل موقعاً سوقياً على المضيق الذي يربط خليج عمان بالخليج العربي ، الأمر الذي أدى إلى ازدهار اقتصادي واسع جداً للإمارة الجديدة ، وبذلك استطاعت تكوين قاعدة اقتصادية قوية لها تستطيع من خلالها فرض نفسها بقوة في المنطقة على حساب القوى المحلية الأخرى المنافسة لها ، بلغ الازدهار الاقتصادي لمدينة هرمز أوجّ قوته في عهد ركن الدين محمود القلهاتي (1244 - 127) عندما أصبحت مركزاً للتجارة العالمية ، من خلال احتلالها الموقع التجاري الأول في المنطقة من حيث الأهمية السياسية والاقتصادية ، فكانت أهم ميناء لتجمّع السلع التجارية في الشرق[5].

لم يُقَدر لهذا الازدهار الاقتصادي أن يستمر طويلاً ، فقد تعرضت هرمز إلى تأثيرات الغزو المغولي للمنطقة في القرن الثالث عشر مثل بقية المدن التجارية في المنطقة ، إلا أنها زادت عليها عندما شن المغول هجمات مدمرة عليها في نهاية القرن الثالث عشر ، مما أدى إلى حدوث دمار كبير وتركوها متحلية بالفوضى والخراب ، مما اضطر حاكم هرمز بهاء الدين إياز (1293 - 1311) [6] ، إلى وضع حد لهذه المتاعب عندما قرر ترك المدينة نهائياً والرحيل مع سكان هرمز إلى جزيرة صغيرة

([1]) وهي من أقدم المراكز التجارية في منطقة الخليج العربي ، تقع على الساحل الشرقي لمدخل الخليج ، حققت ازدهاراً تجارياً كبيراً خلال القرنين العاشر والحادي عشر للمزيد من التفاصيل ينظر ، رغد عدنان الراوي ، التجارة في العصر العباسي المتأخر 945 - 1258 ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 2002 ، ص 141.

([2]) محمد حسن العيدروس ، تاريخ الخليج العربي ، ص 17.

([3]) عصام سخيني ، المصدر السابق ، ص 15.

([4]) مصطفى عقيل الخطيب ، التنافس الدولي في الخليج العربي 1622 - 1763 ، بيروت ، 1981 ، ص 17.

([5]) محمد حميد السلمان ، المصدر السابق ، ص 108.

([6]) إبراهيم خوري التدمري ، سلطنة هرمز العربية ، مركز الدراسات والوثائق ، رأس الخيمة ، 1999 ، ج1 ، ص

قاحلة تقع في مدخل الخليج العربي تُسمَى جيرون[7] ، في الجهة المقابلة للمدينة القديمة إذ تبعد عنها خمسة عشر ميلاً ، فأنشؤوا لهم مركزاً جديداً للتجارة ، فأخذوا يمارسون نشاطهم التجاري المعروف عنهم في مدينتهم الجديدة[8]، لتبدأ عليها ملامح الانتعاش الاقتصادي مما دفع السكان إلى إطلاق اسم هرمز على الجزيرة الجديدة[9] ، فأخذت التجارة تتدفق بصورة منتظمة وسريعة ، ساعدتهم في ذلك الظروف السياسية التي تعيشها المنطقة من تأثيرات الغزو المغولي من جهة ، والموقع المتميز الجديد عنه مدخل الخليج العربي ، من خلال وصول السفن التجارية القادمة إليهم وعدم التوغل إلى مناطق الخليج العربي الأخرى لخشيتهم من التعرض لهجمات المغول من جهة أخرى[10].

امتدت حدود إمارة هرمز على طول السواحل الشمالية والجنوبية المطلة على منطقة خليج عمان ، وتمتد قليلاً داخل مياه الخليج العربي لتشمل منطقة جلفار على ساحل عمان الشمالي ، فضلاً عن بعض الجزر والمناطق التي تدخل في حوزتها ولكنها لا تُعدّ جزءاً أساسياً منها مثل جزيرة قيس ومنطقة القطيف والإحساء وجزر اليمن[11] ، إذ وصفها الرحالة البرتغالي دوراتي بربروسا بالقول: **((إن أراضي مملكة هرمز الرئيسة المطلة على الخليج تنقسم على موانئ عمانية هي (قلهات ، وفريات ، وصور ، ومسقط ، وصحار ، ورستاق ، وخورتكان ، وجلفار ، ورأس الخيمة ، وكلبا) وأخرى بلوشية تقع على ساحل (مكران وكرمان) وهي (ميناب ، وبيغام ، وديفشار ، وساقيون ، وجاندا وجمبرون ولنجة) وكان لملك هرمز قلاع رئيسة في المنطقة ...))** [12] وبذلك تمكّنت هرمز أن تتحول إلى محطة لأكبر تنظيم تجاري وسياسي في المنطقة ، إذ أصبحت حلقة الاتصال الرئيسة في نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، لا سيما بعد ازدياد طلب الأسواق الأوربية على المنتجات والسلع الشرقية أواخر العصور الوسطى ، فضلاً عن الزيادة الكبيرة في العائدات المالية التي تحصل عليها من الرسوم المفروضة على الموانئ التابعة لها[13]. ويعود الفضل في ذلك إلى الموقع الستراتيجي الجديد الذي يتحكم في المضايق المؤدية إلى المياه الداخلية للخليج العربي[14] امتلكت هرمز قاعدة اقتصادية قوية جداً، الأمر الذي ساعد حكّامها على زيادة نفوذهم السياسي والاقتصادي في المنطقة بصورة واسعة ، فقد تمكّنوا من فرض سيطرتهم على معظم موانئ سواحل الخليج العربي وأهمها موانئ الساحل

([7]) ج. ج. لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ،ص 938.
([8]) سالم سعدون ، جزر الخليج العربي دراسة في الجغرافية الإقليمية ، بغداد ، 1981 ، ص 39.
([9]) جمال زكريا قاسم ، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، المجلد الأول ، مصر ، 1997 ، ص 49.
([10]) زهير قاسم محمد ، المراكز التجارية في الخليج العربي قبيل الغزو البرتغالي ، بحث غير منشور ، ص 6.
([11]) ج. ج. لوريمر ، دليل الخليج ، القسم الجغرافي ، ج3 ، ص 125.
([12]) عيسى أمين ، تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي ، مؤسسة الأيتام ، البحرين ، 1996، ص 60 - 61.
([13]) صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، مصر ، 1974 ، ص 10.
([14]) سالم سعدون ، المصدر السابق ، ص 39 - 41.

العماني (قلهات ومسقط وخورفكان وصحار) فضلاً عن موانئ البحرين والقطيف[15]، فأصبح لها دور كبير في التجارة الشرقية مع العراق وبلاد فارس والجزيرة العربية ، فهي لم تكن مركزاً رئيساً للسلع الشرقية وتوزيعها فقط ، وإنما محطة رئيسة للتجارة المحلية في الخليج العربي[16].

شهد النصف الأول من القرن الخامس مرحلة جديدة في تاريخ إمارة هرمز ، عندما بدأت عوامل الضعف تظهر فيها ، فكان للصراع الأسري حول السلطة العامل الأكثر تأثيراً على قوة الإمارة ، لأنه شجع القبائل العربية في ساحل شرقي الجزيرة العربية ، على محاولة الخروج من تحت السيادة الهرمزية ، إذ تجسد ذلك التحرك في زعماء الجبور عندما استغلوا الصراع الأسري بين الأخوين سيف الدين مهار وفخر الدين توارنشاه في العقد الثالث من القرن الخامس عشر ، ليحققوا طموحهم في السيطرة على الإحساء ، وذلك عندما توجه الأمير فخر الدين توارنشاه إلى زعيم الجبور طالباً المساعدة ضد أخيه المنافس الوحيد على الحكم ، وبهذا تمكّن زعماء الجبور من استغلال الموقف بالتدخل لمساعدته وحسم الصراع لصالح الأمير فخر الدين في العام 1439 ، ليعمل الأخير على مكافأة الجبور بالتنازل لهم عن القطيف تكريماً لهم لمساندتهم له في الصراع مع أخيه ، ليواصل زعماء الجبور بعد ذلك من الاستفادة من هذه الأوضاع في فرض سيطرتهم على البحرين والأجزاء الشرقية من نجد في النصف الثاني من القرن الخامس عشر[17].

شهدت مملكة هرمز في نهاية عهد الملك فخر الدين توارنشاه تفاقم عوامل ضعفها ، فبعد وفاته بدأ الصراع حول الحكم بين أولاده الأربعة (شهاب الدين وسلفرشاه ومقصود وأويس) [18]، فعندما تسلّم أويس الحكم رفض إخوته الاعتراف بذلك ، ولا سيما سلفرشاه حاكم قلهات ، الذي أعلن أنه الوريث الشرعي للعرش وهدد باستعمال القوة في سبيل ذلك ، الأمر الذي أدى إلى انتشار حالة من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي نتيجة للحرب الأهلية التي نشبت بين الأخوين تمكّن سلفرشاه من إلحاق هزيمة كبيرة بقوات أخيه وأسره ، بعد ما نجح في تعزيز مكانته في المنطقة من خلال زواجه من ابنة الزعيم العماني سليمان بن سليمان النبهاني من جهة واستعانته بزعيم إمارة الجبور أجود بن زامل العقيلي في مقابل التنازل له عن البحرين والقطيف من جهة أخرى[19].

([15]) زهير قاسم محمد ، المراكز التجارية ، ص 7 ؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت 1977، ج4 ، ص 938 ؛ ر.ك. رمضاني ، الخليج العربي ومضيق هرمز ، ترجمة: عبد الصاحب الشيخ ، البصرة ، 1984 ، ص 15.

([16]) جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص 52- 53.

([17]) عبد اللطيف ناصر، التاريخ السياسي لإمارة الجبور ، ص 44.

([18]) جمال زكريا قاسم ، تاريخ الخليج العربي ، ص 55.

([19]) محمد حميد السلمان ، المصدر السابق ، ص 113-114.

استمرت حالة الضعف سائدة في مملكة هرمز على الرغم من استلام سلفرشاه الحكم والقضاء على المنافسين له ، والذي بدأ بالتنصل من تعهداته السابقة لزعيم الجبور أجود بن زامل ، الأمر الذي أدى إلى نشوب نزاع مسلح بين الإمارتين استمر لفترة ليست بالقصيرة دون أن تكون هناك نتيجة حاسمة لأحد الطرفين[20] ، لتشهد بعد ذلك مملكة هرمز موجة جديدة من الصراعات الأسرية حول العرش ، ولكن هذه المرة كانت بأسلوب جديد ، بدأت باغتيال الأمير توارنشاه لأبيه سلفرشاه ملك هرمز واستلامه للعرش ويلقب توارنشاه الثالث[21] ، وبعد أقل من عشرين يوماً اغتيل هو الأخر على يد ابنه الأمير محمد ، ليتعرض هو الأخر للقتل على يد أخوته الطامعين بالسلطة في هرمز ، الأمر الذي زاد من حدة الاضطرابات والفوضى السياسية في المملكة.

تفاقمت الأزمة السياسية في مملكة هرمز ، بعد الاغتيالات المستمرة لحكّام هرمز من جزء الصراعات الأسرية حول السلطة ، الأمر الذي جعل ممتلكات هرمز محط أهداف القوى المحيطة ، فقد شجعت تلك الظروف حكومة إقليم لار ، على مهاجمة هرمز بهدف احتلالها وإنهاء الوجود العربي فيها ، إلا أن قوات هرمز بقيادة الوزير خواجه عطار[22] ، استطاعت من مواجهة الحملة وتكبيدها خسائر كبيرة أجبرتها في النهاية على الانسحاب[23] ، كما استطاع الوزير خواجه عطار من إنهاء الأزمة السياسية في مملكة هرمز ، بعدما تمكّن من إقناع أعيان هرمز بتنصيب الأمير سيف الدين أبي نصر بن سلفر ملكاً على هرمز بالرغم من أنه لم يتجاوز الثانية عشر من عمره ، وبذلك تمكن الوزير من استلام مقاليد الحكم باعتباره وصياً على الملك من جهة وإنهاء تهديدات حاكم لار للملكة ، لأن الملك الجديد هو ابن أخت حاكم لار من جهة أخرى[24].

ثانياً: الاحتلال البرتغالي لهرمز

تتابعت الحملات البرتغالية إلى الهند لترصين مركزهم بعد وصولهم إليها في الثالث والعشرين من أيار 1498 ، فكانت حملة الفونسو دي البوكيرك إلى الهند في نيسان عام 1503 ، عندما وصلته أنباء مهاجمة ملك كاليكوت للسفن البرتغالية في

([20]) عصام سخيني ، مملكة هرمز أسطورة الخليج ، ص 53.

([21]) أبو حسين علي ، صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين ، مجلة الوثيقة البحرينية ، العدد الأول ، تموز ، 1982 ، ص 138-141.

([22]) خواجه عطار: هو أحد عبيد الملك توارنشاه الثالث ، تقلد مجموعة من الوظائف الرئيسة في إمارة هرمز بفضل الصفات التي امتلكها كالفطنة والذكاء والشخصية القوية.

([23]) أحمد بو شرب ، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل ، مجلة الخليج العربي ، العدد الأول ، البصرة ، 1984 ،

([24]) أحمد بو شرب ، مساهمة المصادر والوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ البحرين خلال النصف الأول من القن السادس ، مجلة الوثيقة البحرينية ، العدد الرابع ، 1984 ، ص 21-25.

كوشن[25] ، فاتجه إلى الهند للانتقام من ملكها حتى أجبره في النهاية على إقرار السلم في السابع والعشرين من كانون الأول عام 1503 ، وخلال إقامة البوكيرك في الهند، استطاع جمع بعض المعلومات عن الأوضاع التجارية والسياسية في البلاد الشرقية ، ووضع على أساسها خطة لترصين النفوذ البرتغالي في المنطقة بتوجيه مباشر من ملك البرتغال[26] ، وذلك من أجل بناء أسس للامبراطورية الجديدة ، والتي تبدأ باحتلال جزيرة سوقطرة ومن ثم عدن للتحكم في مدخل البحر الأحمر ، الذي كان طريق الاتصال مع أوربا عن طريق السويس ، ومن ثم احتلال هرمز للسيطرة على تجارة الخليج العربي[27].

ومن هذا المنطلق أرسل ملك البرتغال حملة بحرية كبيرة إلى الشرق في العام 1506 مؤلفة من أربع عشرة سفينة تحمل 1300 جندي ، تحت قيادة تريستان دي كونها Tristan De Cuanha ، وكان من ضمن قادة الحملة البوكيرك والذي خصص له قيادة خمس سفن ، لغرض سد منافذ التجارة التي يستعملها المسلمون في البحر الأحمر والخليج العربي[28] ، تحركت حملة البوكيرك في الثامن من نيسان عام 1506 ، بدأ البوكيرك نشاطه في موزمبيق ، عندما توقف بها بسبب سوء الأحوال الجوية ، إذ ارتكب مذبحة كبيرة بحق سكانها المسلمين ولم يغادرها إلا بعد أن أحرق المدينة ، ليصل بعد ذلك إلى جزيرة سوقطرة الواقعة في مواجهة الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية وفي منتصف الطريق ما بين الخليج العربي والبحر الأحمر ، فتم اتخاذها قاعدة عسكرية لإغلاق مضيق باب المندب والتحرك نحو عدن[29] ، وبذلك نجح من محاصرة باب المندب ومنع التجار العرب من دخول الهند، فضلاً عن احتكار التجارة والقضاء على الرخاء الاقتصادي العربي ، إلا أنهم فشلوا في احتلال عدن بعد إرسال مجموعة من السفن البرتغالية لمحاصرتها[30].

بعد نجاح البوكيرك في القسم الأول من الأهداف المرسومة له في إغلاق البحر الأحمر بوجه التجارة العربية ، توجّه للسيطرة على الخليج العربي في بداية عام 1507 ، لأنهاء احتكار هرمز للتجارة الشرقية ، إذ بدأ البوكيرك بأعداد الخطط لاحتلالها ، فسارت الحملة البرتغالية باتجاه رأس أكد ، فقام بمهاجمة السفن العربية الراسية في الموانئ ، فضلاً عن قوارب الصيد ، ثم توجّه نحو قلهات والذي أعلن حاكمها الإمام محمد بن إسماعيل (1500- 1535) ولاءه للبرتغاليين بعد الإنذار الذي

([25]) نايف محمد الأحبابي ، الموقف العربي والإقليمي من الهيمنة البرتغالية في الخليج العربي ، رسالة ماجستير، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1988 ، ص

([26]) محمد حميد السلمان ، المصدر السابق ، ص 146.

([27]) محمد عدنان مراد ، صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي ، دمشق ، د.ت ، ص130.

([28]) الفونسوا دي البوكيرك ، السجل الكامل لأعماله ، ترجمة: عبد الرحمن عبدالله ، دبي ، 2000 ،ص101.

([29]) مصطفى السيد سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن 1538 - 1635 ، القاهرة ، 1974 ، ص65.

([30]) فالح حنظل ، العرب والبرتغال في التاريخ 711- 1720 ، أبو ظبي ، 1997 ، ص 173.

أُرسِل إليه من قبل القائد البرتغالي البوكيرك إما الدخول في طاعة البرتغاليين أو تدمير وإحراق مدينته ، وبعدها أبحرت الحملة إلى قريات في الثاني والعشرين في آب عام 1507 ، التي استعد أهلها للدفاع عنها ، إذ حدثت مقاومة عربية كبيرة، لكن عدم التكافؤ بين الطرفين ودخول تعزيزات برتغالية ، فضلاً عن السياسة القمعية التي انتهجها البرتغاليون ضد سكانها من قتل وتنكيل لأهل المدينة وتدمير السفن الراسية في مينائها ، أدى إلى سقوط المدينة بيد الاستعمار البرتغالي[31].

بعد ذلك توجّه البوكيرك نحو مسقط الميناء الرئيس التابع لمملكة هرمز ، وأكثر الموانئ العمانية صناعةٍ وازدهاراً ، لأن جميع السفن التجارية القادمة إلى الخليج العربي ، لا بد أن تمرّ فيها لموقعها السوقي المتميز الذي يتحكم في مدخل الخليج العربي ، ومع وصول أنباء المجزرة التي تعرّضت لها قريات ، إلى مسقط استعد سكانها للمواجهة ، كما ساندهم شيخ الجبور أجود بن زامل من خلال إرساله قوات جبرية لمساندة أهالي مسقط[32] ، فاندلعت الاشتباكات بين الطرفين ، أظهر فيها أهالي مسقط شجاعة كبيرة ، الأمر الذي دفع القائد البرتغالي البوكيك إلى ضرب المدينة بالمدافع وإحراق الجوامع والسفن الراسية في مينائها[33]، إذ يذكر مايلز أن مساعدي القائد البرتغالي البوكيرك قاموا بدور كبير في عمليات القتل والاعتداء على الحرمات وكان البوكيرك أكثرهم قسوة وإجراماً وهمجية ، فقد أطلق العنان لجنوده بعد أن جمعهم في ساحة المدينة ليذبحوا كل ما يصادفونه من المواطنين نساءً وأطفالاً وشيوخاً دون تمييز ، ثم بعد ذلك أمر الجنود بتدمير المدينة وحرقها[34].

توجّه البوكيرك بعد تدمير مسقط نحو صحار التي اشتهرت آنذاك بحصانة قلعها ، غير أن المدينة كانت قد أُخليت من سكانها ، بعد وصول أخبار المجازر الوحشية التي ارتكبت في مسقط ، فلم يكن فيها سوى الحاكم وأتباعه لغرض عقد الاستسلام مع البرتغاليين لتجنب تدمير المدينة ، وكانت شروط الاستسلام التي وافق عليها الحاكم أن يعلن ولاءه لملك البرتغال ويدفع له أتاوة سنوية ، فضلاً عن إقامة حامية برتغالية في المدينة ورفع العلم البرتغالي[35] ، بعد ذلك سار البوكرك باتجاه خورفكان التي قاوم أهلها بصورة كبيرة وأظهروا شجاعة عالية في مقاومة الغزاة ، إلا أن عدم التكافؤ بين الطرفين ووصول تعزيزات برتغالية حالت دون نجاح المقاومة ، لتقع المدينة بين أيدي البرتغاليين ، الذين دمروا وأحرقوا كل المباني والجوامع فيها ، فضلاً عن قتل كل شخص يقع بين أيديهم ، ليتوجهوا بعد ذلك نحو رأس مندم ومنها

([31]) فالح حنظل ، العرب والبرتغال في التاريخ 711- 1720 ، أبو ظبي ، 1997 ، ص 173- 174.

([32]) بدر الدين عباس الخصوصي ، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، الكويت ، 1978 ، ص 16 - 17.

([33]) عصام سخيتي ، مملكة هرمز ، ص 65.

([34]) مايلز ، المصدر السابق ، ص 155.

([35]) بدر الدين الخصوصي ، المصدر السابق ، ص 17.

إلى جزيرة هرمز ، واستهدف البوكيرك في الأعمال الوحشية إشاعة الرعب والخوف في نفوس سكان هرمز[36].

استعدت هرمز لصد الغزو البرتغالي ، إذ أصدر الملك سيف الدين أوامره بتحشيد كافة السفن والبالغ عددها ستون سفينة في الميناء[37]، يحتشد فوقها المقتلون للدفاع عن المدينة ، أما المصادر البرتغالية فتذكر أن أربعمائة سفينة اشتركت في الدفاع عن الجزيرة ، وكان من بينها ستون سفينة كبيرة[38]. على الرغم من أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً ، إلا أنها تدل على المركز والمكانة الكبيرة التي كانت تتمتع بها إمارة هرمز في المنطقة.

بدأت القوات البرتغالية بفرض حصار محكم على الجزيرة ، مع توجيه ضربات المدفع عليها ، وأدى هذا الأمر إلى انهيار معنويات المدافعين ، الأمر الذي دفع سيف الدين ملك هرمز صغير السن ومستشاره الشيخ عطار إلى طلب المفاوضات للتسليم ، وجرت المفاوضات بين الطرفين في جو إرهابي عندما قام القائد البرتغالي البوكيرك بقتل الشيخ عطار أمام أنظار الملك الصغير ، وذلك لإدخال الخوف والرعب في نفسه ليضطر في النهاية على توقيع شروط الصلح المذلة في العاشر من تشرين الأول 1507 ، والذي تضمن مجموعة من البنود أهمها[39]:-

1- أن يبقى سيف الدين حاكماً على هرمز تحت السيادة البرتغالية.
2- أن يدفع ملك هرمز جزية سنوية للبرتغال.
3- فرض غرامة مالية كبيرة لسد نفقات الحملة البرتغالية.
4- إعفاء البضائع البرتغالية من الضرائب في الموانئ التابعة لهرمز.
5- عدم السماح لسفن الأهالي بممارسة أي نشاط تجاري أو بحري في مياه الخليج العربي ، إلا بعد حصولها على تصريح من البرتغاليين.
6- أن يُسمَح للبرتغاليين بإقامة منشأة عسكرية في بلاده.

وباحتلال هرمز فرض البرتغاليون سيطرتهم على المنطقة بشكل لا يقبل الشك، فلم يعد باستطاعة أي سفينة بإقامة نشاط بحري أو تجاري في مياه الخليج العربي دون أن تحمل تصريح برتغالي خاص بها ، وبهذا نجح البوكيرك في تحقيق الحلم البرتغالي في السيطرة على مراكز التجارة الشرقية وضرب الاحتكار العربي للتجارة في الشرق.

([36]) أرنولد.ت ويلسون ، الخليج العربي ، ترجمة: عبد القادر يوسف ، مكتبة الأمل ، الكويت ، د.ت ، ص 66- 68.
([37]) البوكيرك ، المصدر السابق، ص 211.
([38]) ويلسون ، المصدر السابق ، ص 69.
([39]) عبد العزيز محمد الشناوي ، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرقي الجزيرة العربية ، في كتاب لجنة تدوين تاريخ قطر ، ج2 ، ص 628 ؛ محمد عدنان مراد ، المصدر السابق ، ص 129 ؛ البوكيرك ، المصدر السابق ، ص 251.

ثالثاً: دور هرمز في مقاومة الاستعمار البرتغالي

شكلت هرمز المحور الأساسي والمهم في حركة المقاومة العربية للاستعمار البرتغالي في المنطقة ، إذ كانت حلقة الارتباط والمحرك ما بين مدن الخليج العربي المناهضة للاستعمار ، وذلك لأن أغلب هذه المدن هي تابعة سياسياً لمملكة هرمز قبل مجيء الاستعمار البرتغالي للمنطقة ، وبعد خضوع هذه المناطق تحت السيطرة الاستعمارية أصبح نفوذها السياسي أقل تأثيراً مما كان سابقاً ، ولكننا نراها أمام حركة المقاومة العربية لطرد الاستعمار البرتغالي من المنطقة تتوحد تحت قيادة ملك هرمز ، وذلك بسبب طبيعة الروح العربية النافرة من الاسترقاق والتبعية وإنهاء السلوك الهمجي والوحشية التي مارسها البرتغاليون في المنطقة.

أ- دور هرمز في ثورة الأهالي

بدأت أولى بوادر الحركة الوطنية المناهضة للوجود الاستعماري البرتغالي في منطقة الخليج العربي تحت قيادة حكّام هرمز في العقد الثاني من القرن السادس عشر[40] ، عندما شرع العرب سكان الخليج العربي لتحريك ثورة تحت قيادة ملك هرمز توارنشاه (1516- 1522)، بعدما ضاق الوضع عليهم من جراء الحكم البرتغالي الصارم ، الذي اتّسم بالجبروت والنزعة التخريبية والتعسف واستنزاف أموال السكان ، ويمكن قراءة بعض أسبابها في الرسالة التي أرسلها ملك هرمز توارنشاه إلى نائب الملك في الهند لوبر سواريز (L. Swarees) ، قائلاً: (اليوم هرمز من توابعكم ، وعمالكم فيها يتدخلون في كل الأمور الداخلية ، نحن ننتظر منكم الاهتمام بهذا الأمر والنظر إلى تغيير المنطقة ، حيث إن أحوال مملكة خراسان مضطربة مما تسبب في توقف القوافل التجارية لهذه الولاية ، ومن ناحية موانئ الهند فإن القوافل لا تأتي إلا من ثلاثة موانئ فقط ، بعد أن كانت تأتي من جميع موانئها من قبل ، ولهذا فقد كَلَّ المحصول ، وبالتالي قل الدخل وأصبحنا لا نتعامل مع أحد ويأتي عمالكم ومسؤولكم لدينا كل عام ويمكثون فترات طويلة ينفقون فيها ببذخ)[41].

تُبّين هذه الرسالة الشكوى الدائمة من ملك هرمز والموانئ التابعة له من البرتغاليين ، كما إن نائب الملك في الهند لوبر سواريز ، اتّبع سياسة جديدة تختلف قليلاً عن سياسة سلفه البوكيرك (1509- 1515) ، إذ إنها لا تعتمد على البطش والتكتيل ، بل تستهدف إنعاش التجارة بالطرق السلمية ، ولكن هذه السياسة تهدف إلى الهيمنة على سائر النشاطات التجارية في الخليج العربي ، وذلك من خلال تعيين ضباط عسكريين في المراكز الجمركية للمدن التجارية في الخليج العربي لتحصيل

([40]) هناك ثروة حدثت في قلهات عام 1519 بقيادة حاكمها شهاب الدين ضد الوجود البرتغالي ولكنها لم تخرج خارج حدود قلهات بسبب عدم التنسيق مع ملك هرمز والمناطق الأخرى لأن شهاب الدين كان قد خرج من سلطة هرمز وأعلن انفصاله التام ، الأمر الذي دفع ملك هرمز إلى عدم مساندة ثورته فكانت نتيجتها الفشل ، للمزيد من التفاصيل ينظر: زهير قاسم محمد ، الثروة الخليجية ضد الاحتلال البرتغالي ، ص 123 - 124.

([41]) محمد حميد السلمان ، المصدر السابق ، ص 292.

الضرائب وفق تعليمات بلاط لشبونة ، الأمر الذي أدى إلى استياء سكان الخليج من هذه السياسة ، لأن هدفها الباطن هو زيادة تحكّم وسيطرة الضباط العسكريين بصورة مباشرة وممن كانوا ذوي أخلاق فاسدة ومرتشين لا يفقهون في التجارة شيئاً وهذا ما نلمسه في رسالة توارنشاه.

الأمر الذي أدى إلى قيام ثورة كبيرة في هرمز وبقية المدن الخليجية في الثلاثين من تشرين الثاني 1521 ، ضد الاستعمار البرتغالي ، والتي يمكن إجمال أهم أسبابها بما يلي:

1- إخضاع إمارات الساحل لاتفاقيات مجحفة ذات مطالب وإتاوات سنوية ، فضلاً عن نفقات كبيرة تصب في مصلحة القادة البرتغاليين ومصلحة الحكومة البرتغالية[42].

2- قرار ملك البرتغال بتعين موظفين برتغاليين في إدارة الجمارك في هرمز ، بدلاً من الموظفين المحلين ، الأمر الذي أدى زيادة المعاملة القاسية للأهالي من قبل المشرفين الجدد للجمارك ، وقد طُبِّق هذا القرار على جميع جمارك الخليج العربي الخاضعة للاحتلال البرتغالي حتى العام 1521[43].

3- أصدر البرتغاليون قراراً بمنع أي سفينة من ممارسة الملاحة في مياه الخليج ، قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية[44].

4- إصرار الحكومة البرتغالية في سائر الاتفاقيات مع حكومة هرمز على تثبيت شارة الصليب على الأبنية الإدارية الرسمية.

5- زيادة حركة التبشير الديني في المنطقة من خلال بناء الكنائس ودعوة الناس إلى المسيحية.

6- قسوة الحكم البرتغالي ونظرته العنصرية للعرب ، إذ كان القادة البرتغاليين يكتبون إلى الملك عمانويل الأول رسائل مستفيضة يتحدثون فيها بافتخار بالغ عن حرق بلاد الكفار (ويعنون المسلمين) ، وعن بقر بطون الحوامل وجذع أنوف الأسرى وصلم آذانهم، ناهيك عن السلب والنهب وحرق المساجد معتبرين ذلك من المفاخر التي تستحق التسجيل ، وقد حدث ذلك في مخاطبات البوكيرك ودي الميدا[45].

بدأ التخطيط للثورة والعمل للإطاحة بالنفوذ البرتغالي في هرمز ومدن الخليج وعمان سراً داخل البلاط الملكي في هرمز بين الملك توارنشاه ووزرائه بزعامة شرف الدين ، وقد وضعت الخطة بشكل بارع وناجح ، كما تم إرسال رسائل سرية إلى بعض التجار المترددين بشكل يومي على الموانئ الخليجية التابعة إلى هرمز

([42]) قدري قلعجي ، الخليج العربي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1965 ، ص 365 - 367.

(2) Manuel de Faray Sousa, the History of the die Couruy and Conguest of India, trans by: Jhon Stevens, 2du, Ied. Val. 1, Germany, 1970, P. 263- 265.

([44]) ويلسون ، المصدر السابق ، ص76.

([45]) للمزيد من التفاصيل عن وحشية البرتغاليين والقائد البوكيرك ، ينظر: نايف محمد حسن الأحبابي ، المصدر السابق ، ص 293- 295.

وحكّام هذه الموانئ ، تضمنت تعليمات بضرورة مساندة الثورة للتخلص من الوجود البرتغالي في المنطقة[46] . وتم الاتفاق على ساعة الصفر في وقت معين وفي ليلة محدودة يُبلغون فيها لاحقاً ، على أن تقوم الثورة في جميع الموانئ دفعة واحدة ، حتى لا يجد البرتغاليون ملاذاً آمناً يحتمون به لضرب الثورة [47].

وضعت الخطة على شقين ، الأول يقوم على حرق السفن البرتغالية الراسية في الميناء ليلاً عندما تحين ساعة الصفر ، حتى يتمكّن أهل هرمز وبقية المراكز التجارية رؤيتها ، والإقبال على تنفيذ الخطة المتفق عليها سابقاً ، أما الشق الثاني من الخطة فتولاها ملك هرمز شخصياً بأن اجتمع بقائد الاسطول البرتغالي في الخليج العربي المدعو جاركيا دي كوتنيهو (G. De Kutineho) قبل إعلان الثورة بفترة محددة ، وادعى فيها توارنشاه وجود قراصنة في الساحل العربي قرب عمان على بحر العرب يهجمون على السفن هناك ويشكلون مصدر قلق ومتاعب للتجار ، وطالب بوجوب القضاء عليهم في الحال بإرسال بعض قطع الأسطول البرتغالي [48]، فصدّق القائد البرتغالي الخدعة وأمر بإرسال سفينتين من سفن الأسطول البرتغالي الأربع المتواجدة في ميناء هرمز لهذا الغرض ، وبذلك استطاع توارنشاه من التخلص من نصف الأسطول البرتغالي وتحاشي نيرانه في وقت إعلان الثورة ، إذ كان هذا الأسطول هو عصب القوة العسكرية البرتغالية في الخليج [49].

وعندما أصبح الوقت ملائماً وحان الموعد المحدد في فجر يوم الثلاثين في تشرين الثاني 1521 ، انطلقت الثورة في هرمز إلى بقية مناطق الخليج العربي ضد البرتغاليين وبشكل لم يكن متوقعاً من وجهة نظر البرتغاليين [50].

ففي هرمز بدأت الثورة بهجوم مباغت قامت به مجموعة فدائية بقيادة شاهبندر النجار على السفينتين البرتغاليتين في الميناء ، وأشعلوا فيها النار ، وكانت تلك إشارة بواسطة نار السفن للبدء بالهجوم السريع على الجنود البرتغاليين الذين كانوا نائمين في بيوتهم داخل المدينة ، إذ تم أسر أكثر من ستين برتغالياً في هرمز وحدها أثناء الهجوم ، بينما تمكّن بقية الجنود من الهرب واللجوء إلى القلعة البرتغالية الحصينة في ميناء هرمز في انتظار وصول نجدات برتغالية من الهند ، مما دعا الثوار إلى فرض حصار محكم على القلعة ، الأمر الذي أدى إلى قلة المؤن لديهم

([46]) زهير قاسم محمد ، الثورات الخليجية ، ص 129.

([47]) محمود علي الداوّد ، العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي 1507 - 1650 ، مجلة كلية الآداب ، العدد 2 ، جامعة البصرة ، شباط 1960.

([48]) أحمد العناني ، البرتغاليون في البحرين وحولها ، مجلة الوثيقة ، العدد 4 ، السنة الثانية ، البحرين ، 1984، ص 78- 79 ؛ زهير قاسم محمد ، المصدر السابق ، ص 129.

(2) Miless. S.b, the Cuntries and the tribes of the Persian Gulf, 2 nd ed, London, 1965, p. 158.

([3]) I bid, p. 158.

وأخذوا يواجهون خطر الموت من الجوع والعطش ، فأصبح الموقف لصالح الثوار في هرمز [51].

وفي البحرين تم مهاجمة البرتغاليين في كل المواقع والمكاتب العسكرية ، وقتل عدد من الجنود البرتغاليين وهرب الباقين على سفنهم في البحر ، كما استولى الثوار على مركز التجارة البرتغالي والقبض على رئيس المركز روي بالي (Ruy Bale) ، فتم إعدامه على أحدى أشجار النخيل قرب القلعة البرتغالية في البحرين والتي تعرضت الأخرى لهجوم الثوار [52].

أما في صحار فقد انضمت إلى ثورة الأهالي وإعلان العصيان المسلح ضد البرتغاليين، إذ تمكّن الثوار من توجيه عدة ضربات قوية على المحمية البرتغالية هناك وتكبيدهم خسائر كبيرة[53].

وفي قلهات كانت المعلومات عن قيام الثورة قد وصلت إلى البرتغاليين في الوقت المناسب وبتلك السرعة من هرمز إلى أبعد نقطة في أملاكها بالساحل العماني ، ربما يكون هناك احتمال تسرب أنباء الثورة وتوقيتها إلى البرتغاليين في قلهات أثر خيانة ما ، أو إن موعد الثورة في هذه المدينة قد تأخر أو تأجل لسبب ما أيضاً ، وربما كان هذا ما دعا ملك هرمز إلى تغيير حاكمها بصورة سريعة[54]. أما في مسقط فإن الظروف كانت مختلفة ، فهي المدينة الوحيدة التي وجد فيها البرتغاليون بعض الأصدقاء والحماية لأرواحهم ، إذ لم تنظم إلى الثورة على الرغم من موافقة حاكمها الشيخ راشد على المشاركة في الثورة دون اعتراض ، ويبدو أن الشيخ راشد كان على خلاف مع ملك هرمز ، فتظاهر بالموافقة على إعلان الثورة، ليستغلها لصالحه في إعلان استقلاله والتخلص من تبعية هرمز ، ولهذا لم يشارك في الثورة ، وأطلق عليه بعض الكِتّاب المعاصرين (خيانة الشيخ راشد للثورة) [55] ، وعَدوا ذلك سبباً في عدم نجاحها كما كان متوقعاً ، مما دعا ملك هرمز إلى إرسال حاكم قلهات الجديد ديلامبرشاه ، لغرض تأديب الشيخ راشد والذي اضطر إلى الهرب من مسقط، لعدم امتلاكه القوة العسكرية الكافية ولا الشجاعة ليبقى في المدينة[56].

كادت الثورة أن تقضي على الوجود البرتغالي في الخليج ، إذ عصفت بالحاميات العسكرية البرتغالية في كل هرمز والبحرين وقربات وصحار، أثر

([4]) D. C. wilkin son, AL Bahrain and Oman, Watheega, no. 5, July, 1948, p. 53.

([1]) Miles, op, cit, p.159.

([53]) س. بكنجهام ، بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان ، حصاد ندوة الدراسات العمانية ، عمان ، 1980 ، ص 192.

([3]) Miles, op, cit, p.159-161.

([55]) نصر الله فلسفي ، إيران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي ، ترجمة: محمد فتحي يوسف ، دار الثقافة ، القاهرة ، 1989 ، ص 21- 31.

([2]) Miles, op, cit, p.159.

تعرضها للهجمات من البر والبحر بشكل مفاجئ وقوي ولولا دفاع البرتغاليين عن أنفسهم بالأسلحة الحديثة لأبيدوا عن آخرهم ، فضلاً عن وصول الإمدادات العسكرية عن طريق البحر من الهند بقيادة دوم لويز دي متريس (D.l.D.Meneces)[57]. وبهذا لم تنجح ثورة الأهالي في رفع قبضة البرتغاليين على مناطقهم ، فقد واجهوها بأقصى ما لديهم من قوة وبطش بالثوار بعد وصول المساعدات العسكرية من الهند ، فكان لعدم التكافؤ بين الطرفين في الأسلحة والمعدات العسكرية ونفاذ الذخيرة لدى الثوار ، حال دون تحقيق حلم الثوار في طرد المستعمر ، لكن الشيء المؤكد لدى البرتغاليين بأن الخطر أصبح قريباً منهم وبشكل قوي.

(ب) دور هرمز في أحداث العام 1522.

تُعدّ أحداث العام 1522 ، امتداداً طبيعياً لثورة الأهالي في الخليج العربي ، بعد أن أدرك البرتغاليون بأنهم أصبحوا مكروهين في عامة المسلمين ، وإن العلاقات بينهم في القوى المحلية في لخليج العربي والمحيط الهندي تتصف بالعداء الشديد ، ففي تشرين الثاني من العام 1522 ، ضاق يخ هرمز ذرعاً بالوضع المزري الذي وصلت إليه الحال في الخليج بصورة عامة وهرمز بصورة خاصة ، فحاول إخراج البرتغاليين من هرمز وصحار وقلهات وقربات وكذلك من شمال الخليج (البحرين والقطيف) [58] ، احتجاجاً على سيطرتهم على المراكز التجارية ، إذ قام بتنظيم هجوم قوي ومفاجئ حقق فيه نجاحاً كبيراً في بداية الأمر ، تمكّن من تكبيد البرتغاليين خسائر فادحة ، ولكنهم سرعان ما أرسلوا في طلب النجدات العسكرية من الهند كعادتهم ، فوصل أسطول برتغالي إلى المنطقة ، تمكّن من استعادة المراكز التجارية من الثوار وفرض السيطرة التامة عليها. أما هرمز والتي كانت مكان التخطيط للثورة ، فقد واجهت تدميراً كبيراً على أيدي البرتغاليين[59]. أما في البحرين فقد أحرز الثوار قدراً كبيراً من النجاح ، إذ تولى قيادة الثوار في الليلة المتفق عليها الشيخ حسين بن سعيد أحد شيوخ بني جبر ، فقام بالهجوم المفاجئ على القلعة التي يتحصن بها البرتغاليون وألقى القبض على حاكم الجزيرة البرتغالي ، فقام بشنقه على نخلة[60]، الأمر الذي أدخل الرعب في نفوس بقية الجنود البرتغاليين فلاذوا بالفرار ، ليضطر البرتغاليون إلى اعتماد الدبلوماسية سبيلاً لاسترداد سيادتهم على البحرين من خلال عقد اتفاق مع الشيخ حسين بن سعيد ، تضمن النقاط الآتية[61]:

---

(3) Wilkin son, op. cit, p. 53.

([1]) Fariay Sousa, op. cit, p. 256.

([59]) نوال حمزة يوسف الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن السادس عشر ، الرياض ، 1983 ، ص 76 - 81.

([60]) الشاطر بصيلي عبد الجليل ، الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، العدد12 ، القاهرة ، 1964 ، ص 115- 130.

([61]) نوال حمزة الصيرفي ، المصدر السابق ، ص 79 - 81.

أ- أن يكون الشيخ حسين بن سعيد حاكماً عربياً على البحرين.
ب - الموافقة على تعيين مستشار برتغالي يُدعَى لويس دي متريس (L.De.metrees) لمساعدة الحاكم في الإدارة.

جـ - دور هرمز في أحداث العام 1523.

شهد الخليج العربي تجدد الحركة الوطنية الرافضة للوجود الاستعماري البرتغالي في العام 1523 ، عندما قام البرتغاليون بإصدار قرار بتعيين موظفين برتغاليين للمراكز التجارية في هرمز وصحار وقربات والبحرين والقطيف بعد أن سيطروا على المنطقة بعد أحداث عامي (1521 - 1522) ، الأمر الذي أثار سخط الأهالي في جميع مناطق الخليج ، مما دفع شيخ هرمز إلى تنظيم هجوم بري يحدث في وقت وأحد في المناطق الخاضعة للبرتغاليين ، في محاولة لطردهم بعد أن خسروا أرواحاً كثيرة من جراء الهجوم المفاجئ من قبل الثوار ، ولكن عدم التكافؤ بين الطرفين وقلة الذخيرة لدى الثوار وتدخل الأسطول البرتغالي في المعركة والذي قام بتدمير مدينة صحار وتقدم باتجاه هرمز واستعادتها من الثوار ، حال دون نجاح الثورة[62]، والتي أسفرت في النهاية عن توقيع معاهدة ميناب في الثالث والعشرين من تموز 1523 في بندر ميناب على الساحل الشرقي بين نائب الملك في الهند دوران ميز (D. Meize) وأمير هرمز الجديد البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة والتي تضمنت البنود الآتية[63]:

1- تكون مملكة هرمز تابعة لملك البرتغال مباشرة تسلم له حتى طلبها.
2- زيادة الضريبة السنوية التي تدفعها هرمز للبرتغال إلى (ستين ألف دينار أشرفي) وفي حالة تعطل وصول القوافل التجارية البحرية من كجرات وبومباي وموانئ الهند إلى هرمز يخفض المبلغ إلى 25 ألف أشرفي ، يُدفَع قسم منها بعد التوقيع.
3- يُمنَع سلطان هرمز من امتلاك قوة عسكرية إلا للحراسة والخدمة في البلاد وقصر الحاكم فقط.
4- يقوم ملك البرتغال بتقديم الحماية لأمير هرمز ضد أي اعتداء خارجي.
5- يُمنَع حمل الأسلحة من قبل أتباع ملك هرمز ، باستثناء المسؤولين الرسميين فقط للدفاع عن أنفسهم.
6- يُسلّم سلطان هرمز جميع النصارى البرتغاليين الذين دخلوا في الدين الإسلامي إلى حكومة البرتغال.

([62]) محمد عارف الكيالي ، الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، مركز الدراسات والوثائق ، رأس الخيمة ، 2001 ، ص 105 - 120.
([63]) مايلز ، المصدر السابق ، ص 80- 85.

وقد كتبت هذه المعاهدة باللغة الفارسية وترجمت إلى البرتغالية ، وأرسلت إلى الملك جون الثالث (Jhone) الذي بعث بدوره برسالة بتفويض إلى محمد شاه لحكم هرمز نيابةٍ عنه[64].

د- دور هرمز في ثورة العام 1526 في الخليج العربي.

عاد عرب الخليج إلى إعلان ثورة جديدة ضد المستعمر البرتغالي في الحادي والعشرين من شباط 1526 ، إذ كان لسياسة الظلم والاضطهاد والتسلط التي مارسها قائد الحامية البرتغالية في هرم ديو جوري ميلو (D.Milew) ، عاملاً رئيساً لقيام الثورة ، إذ كان الحكم البرتغالي حكماً صارماً اتّسم بالتخريب والتعسف واستنزاف أموال الأهالي ، مما دفع الثوار إلى تنظيم هجمات سريعة ومفاجئة للحامية البرتغالية في هرمز حققوا فيها نجاحاً ملموساً على الأرض وشاركهم فيه حكّام مسقط وقلهات بالرغم من سياسة الاضطهاد التي مارسها البرتغاليون ضد الثوار[65].

وعندما وصلت أبناء الثورة إلى نائب الملك في الهند ، أمر بإرسال حملة عسكرية سريعة إلى منطقة الخليج العربي مؤلفة من خمس سفن للقضاء عليها تحت قيادة لوبو فاز (L.vas) في حزيران عام 1527 ، تمكّن من خلالها البرتغاليون من نقل تعزيزات عسكرية إلى جزيرة هرمز التي اتخذها الثوار مقراً لقيادة الثورة ، لنبدأ الأعمال القمعية ضد الأهالي من قتل وإحراق وتنكيل بالسكان وبعد هذه السلسة من الأعمال الوحشية تم القضاء على الثورة ، كما انتهز القائد البرتغالي هذه الفرصة وقام بتعزيز الوجود العسكري البرتغالي في عمان من خلال إنشاء عدد من الحاميات العسكرية فيها[66].

هـ - دور هرمز في ثورة 1529.

استمرت روح المقاومة العربية في هرمز ضد الاحتلال البرتغالي للخليج العربي ، عندما أعلن الثوار في العام 1529 ، ثورة جديدة رافضة لقرار ملك البرتغال بترحيل كافة القوى الوطنية والجماعات المناوئة للبرتغاليين من جزيرة هرمز، إذ قام دوم نونو دي كوتها (Dm. Nono. D.k) ، حاكم المستعمرات البرتغالية في الهند أثناء زيارته لجزيرة هرمز بعزل الوزير شرف الدين ونفيه إلى لشبونة في نهاية العام 1529 ، بحجة إنه يدبر لثورة أخرى في الخليج ، تمكّن الثوار فيها من مهاجمة البرتغاليين وتكبيدهم بعض الخسائر ، إلا أنهم أعادوا تنظيم قواتهم العسكرية ولا سيما

([64]) عبد العزيز محمد الشناوي ، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية ، قطر ، د.ت ، ص 628.

([65]) مايلز ، المصدر السابق ، ص 175.

([66]) زهير قاسم محمد ، الثورات الخليجية ، ص 134.

بعد وصول تعزيزات جديدة تمكّنوا من خلالها من إعادة السيطرة على الوضع في هرمز[67].

أما في بقية مناطق الخليج العربي الأخرى فقد تعرض البرتغاليون إلى هجمات متفرقة ، فثارت البحرين رافضة الإجراءات البرتغالية الجديدة ، الأمر الذي دعا قائد الحامية العسكرية إلى إرسال حملة عسكرية إليها ، إلا أنها فشلت أمام قوة الثورة ، إذ استطاع الثوار تكبيدهم خسائر كبيرة ، فكان لهذا الفشل انعكاسات سيئة على هيبة البرتغاليين ونفوذهم في الخليج العربي ، إذ بدأ البرتغاليون يفكرون بتجنب كل ما ينطوي عليه الحكم المباشر لتلك المناطق من نفقات ومشكلات ، فعمدوا إلى وضع القسم الأكبر من السلطة بأيدي الأمراء المحليين وعدم التدخل في تقاليد البلاد وأنظمتها طالما لا تتعارض السلطة البرتغالية ومصالحها واحتكاراتها التجارية[68].

ومن هنا يتبين لنا مدى الدور الكبير الذي أدّته هرمز في قيادة حركة المقاومة العربية الرافضة للوجود الاستعماري البرتغالي في الخليج العربي ، فقد كانت مركز للقيادة والتخطيط لجميع الثورات التي حدثت في المنطقة ، كما قاومت سيطرة المحتل البرتغالي بشتى الوسائل وتكبيدهم خسائر كبيرة بالرغم من عدم التكافؤ بين الطرفين، حتى انتهت أخيراً إلى إنهاك قوتهم واستعادة الكثير من المواقع على ساحل الخليج العربي ، الأمر الذي ينم عن مدى التضامن والتنسيق بين هرمز وبقية المدن الأخرى لطرد المحتل وإنهاء سيطرته على الأرض والثروات المشروعة لأهالي تلك المنطقة دون غيرهم.

رابعاً: سقوط إمارة هرمز

شهد الخليج العربي ظهور تحالف استعماري جديد (انكليزي ـ فارسي) لإزاحة الإمبراطورية الإسبانية ـ البرتغالية من المنطقة والسيطرة على الطريق البحري للتجارة بين الشرق والغرب ، بعد أن أدرك الشاه عباس الأول صعوبة خوض صراع بحري مع دولة بحرية كبيرة كالبرتغال في المنطقة ، بسبب عدم امتلاكه قوة بحرية قادرة على المواجهة ، ولهذا اتجّه نحو الإنكليز من خلال شركة الهند الشرقية والإنكليزية للسيطرة على هرمز ، ذات الموقع الستراتيجي المهم المتحكّم بمدخل الخليج ، فضلاً عن تنظيماتها الإدارية الواسعة والتحالف الموجود بينهما وبين البرتغاليين جعل منها قوة ضخمة لا يمكن قهرهم ، لذلك سعى نحو التحالف مع الإنكليز وإقامة علاقات طيبة مع شيوخ القبائل العربية البحرية ، حتى يتمكّن من إضعاف مركز وأهمية هرمز من كل النواحي وبالتالي يسقطها[69].

([67]) عبد العزيز محمد الشناوي ، المصدر السابق ، ص 639 ـ 640 ؛ محمد عارف الكيالي ، المصدر السابق، ص 120.

([68]) مايلز ، المصدر السابق ، ص 175 ؛ زهير قاسم محمد ، الثورات الخليجية ، ص 137 ـ 138.

([69]) كارستن ليبور ، وصف أقاليم شبه الجزيرة العربية ، ترجمة: مازن صالح ، بيروت ، 2013 ، ص 291.

ولتحقيق هذه الستراتيجية بدء الشاه عباس الأول بالتحالف مع الشيخ الجبري حاكم القطيف والإحساء للسيطرة على البحرين ، بعد انفصالها عن مملكة هرمز ، عندما استغل حاكم البحرين الهرمزي ركن الدين مسعود اضطراب الأوضاع في هرمز بعد وفاة الملك فرح شاه وتولي ابنه فيروز شاه الحكم ، ليعلن انشقاقه عن هرمز ، الأمر الذي استغله حاكم القطيف ، فقام بمهاجمة البحرين بالتعاون مع حاكم شيراز إمام كلي خان ويفرض سيطرته عليها ويسلمها للشاه عباس الصفوي[70].

عندما وصلت أخبار سقوط البحرين ملك هرمز فيروز شاه ، أرسل قوة كبيرة لاستعادتها مستعيناً بالقوات البرتغالية ، إلا أن استعدادات ملك هرمز لم تكن بالشكل المطلوب ، لتكون نتيجة المعارك لصالح القوات الصفوية عام 1602 ، ولتعزيز هذا الانتصار عمد الشاه عباس الأول على تعزيز الوجود الصفوي في البحرين ، لاستعمالها قاعدة لانطلاق حملاتهم على مملكة هرمز في أواخر عام 1602[71].

بعد فقدان التحالف البرتغالي الهرمزي سيطرته على جزيرة البحرين مع بعض القواعد العسكرية والتجارية للبرتغال على سواحل الخليج العربي ، أرسل الحاكم البرتغالي لجزيرة هرمز تقريراً وافياً عن هذه الأحداث إلى ملك إسبانيا ، مع بيان طبيعة السلوك العدائي للشاه عباس الأول ، فكان رد الملك الإسباني على التقرير ، بإرساله خطاب موجّه إلى الشاه شكا فيه سلوك حاكم إقليم فارس قلي خان ، لاستيلائه على البحرين والتجاوز على بعض القلاع البرتغالية في الخليج ، رد الشاه عباس على الخطاب بأن قام بتصعيد العمليات العسكرية للقوات الفارسية ضد ملك هرمز ، فتمكّن من احتلال جمبريون (بندر عباس) والتي كانت من أهم المصادر الرئيسة للماء بالنسبة لمملكة هرمز[72].

الأمر الذي دعا البرتغاليون إلى إرسال وفد إلى الشاه عباس في العام 1619، لعرض رغبة البرتغال في عقد معاهدة تحصل بمقتضاها البرتغال إلى احتكار تجارة الحرير الفارسي ، فضلاً عن المطالبة في استرجاع البحرين وجمبريون، لكن هذا العرض أثار غضب الشاه عباس والذي هدد بخلع البرتغاليين من قلعتهم في هرمز ، وأصدر فرمان بإعطاء الإنكليز حق تجارة الحرير الفارسي عن طريق البحر دون غيرهم من القوى الخارجية ، لذلك أسس الإنكليز أول مركز تجاري لهم في جزيرة جسك على الساحل الشرقي ، وأخذت التجارة الإنكليزية في جسك بالازدهار ، بفضل فرمان الشاه الذي أعفا البضائع الإنكليزية من الضرائب الجمركية[73]. وقد أعقب نجاح هذه الخطوة الأولى ، خطوات ناجحة إلى موانئ الخليج الأخرى ، وفي التاسع

([70]) نصر الله فلسفي ، المصدر السابق ، ص 38 ؛ فوزية الحبيب ، تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين 1521- 1602 ، المؤسسة العربية ، بيروت ، 2003 ، ص 168.

([71]) نصر الله فلسفي ، المصدر السابق ، ص 45 - 47.

([72]) نصر الله فلسفي ، المصدر السابق ، ص 54.

([73]) المصدر نفسه ، ص 54.

عشر من آذار 1620 ، أرسل الملك جيمس الأول خطاباً يشكره فيه على ما أعطاه للتجار الإنكليز من امتيازات ، ويطلب منه السماح لشركة الهند الشرقية بتأسيس مصنع للحرير في ميناء جسك ، فوافق الشاه عباس على الطلب الإنكليزي رغبة منه في تعزيز العلاقات بين الطرفين وتوحيد الجهود ضد البرتغاليين وإضعاف القوى المحلية[74].

أصبح البرتغاليون يواجهون خصماً من نوع آخر يختلف عن الأفارقة والآسيويين الضعاف التسليح ، فلقد ظهر الإنكليز والهولنديون على المسرح لينازعوا البرتغال في السيطرة على البحار ولينافسوهم تجارياً ، ثم يقوموا في النهاية بتمزيق إمبراطوريتهم في الشرق ، وقد حدثت اشتباكات كثيرة ودامية بين هذه القوى الثلاث ، غير أن القوة البرتغالية كانت قد بدأت بالفعل تتقلص ولم تعد قادرة على التصدي للتنافس غير المتكافئ ، حدث الصدام الأول بين الإنكليز والبرتغاليين في العام 1620 في معركة جسك البحرية والتي انتصر فيها الإنكليز ، وبعد ذلك أخذ الأسطول الإنكليزي القيام بعمليات تهدف إلى عرقلة النشاط التجاري للبرتغال[75] .

الأمر الذي دفع ملك البرتغال إلى إرسال أسطول حربي إلى هرمز بقيادة روي فيريرا دي اندرادي (Roy. F. De. Anberabr) لتعزيز الوجود البرتغالي فيها وحماية المصالح التجارية البرتغالية في المنطقة ، وبعد وصول روي فيريرا إلى هرمز عقد اجتماعاً في القلعة البرتغالية في هرمز ، دعا إليه محمد شاه ملك هرمز ، وذلك لمناقشة أوامر ملك البرتغال والتي أمر فيها بناء قلعة جديدة في جزيرة قشم ، لأجل إثارة الفرس والإنكليز والدخول معهم في الحرب ، لكن الحاكم البرتغالي في هرمز رفض هذا الاقتراح بحجة إن هذا الإجراء سوف يخلق أعداء جدد للبرتغاليين وملوك هرمز ، في الوقت الذي أصبحت فيه القوات البرتغالية في الهند بالتردي ، وطُلِب من القائد البرتغالي روي فيريرا إبلاغ ملك إسبانيا والبرتغال بخطورة هذا الأمر[76] .

وفي هذه الأثناء تدخّل ملك هرمز محمد شاه في المناقشة وأوضح لهم بأن هذه الممتلكات عائدة لنا ولدينا الرجال والمال للدفاع عنها ، وأكد على ضرورة إقامة هذه القلعة ، فاقتنع الحاكم البرتغالي بالأمر ، وجهزوا سفنهم للإبحار نحو جزيرة قشم لإقامة هذا المشروع الكبير[77]، وعند وصول السفن البرتغالية إلى الجزيرة وعلى مسافة بعيدة نسبياً عن أماكن الخنادق التي يتحصن بها نحو ثلاث آلاف مقاتل فارسي ، بعد ذلك تحركت السفن الحربية نحو المواقع التي يتحصن بها الفرس وتم قصفها

([74]) زكي صالح ، العراق وبريطانيا حتى عام 1914 ، بغداد ، 1968 ، ص 48 - 49.
([75]) عبد العزيز محمد الشناوي ، المصدر السابق ، ص 682.
([76]) مذكرات القائد روي فيريرا اندراي ، يوم سقطت هرمز ، ترجمة: عيسى أمين ، مؤسسة الأيام للنشر ، د.ت، ص 11.
([77]) المصدر نفسه ، ص 51.

بالمدفعية ، ثم قام البرتغاليون بقيادة روي فيريرا والهرمزيين بقيادة علي كمال الظهوري بإنزال ألفين وخمسمائة مقاتل على الساحل ، فأصبحت الكفة لصالح البرتغاليين بعد انسحاب القوات الفارسية ، لتبدأ بعد ذلك عملية بناء القلعة البرتغالية الجديدة في جزيرة قشم ونُصِبت فيها المدافع وحفر حولها الخنادق لحمايتها[78].

بعد وصول أبناء القوات الفارسية من جزيرة قشم ، أمر الشاه عباس ، حاكم إقليم فارس قلي خان بالسير نحو جزيرة قشم وبصحبة ستة آلاف مقاتل ، تمكّن من فرض حصار محكم على الجزيرة بعد استقراره في التلال المقابلة للقلعة البرتغالية ، وفي جنح الظلام نجحت القوات الفارسية في اختراق القلعة البرتغالية وتحطيم أسوارها وتحصيناتها واكتفت السفن البرتغالية بإطلاق المدفعية على المهاجمين لكنها لم تستطيع فعل شيء أمام الإصرار الفارسي على إسقاط الوجود البرتغالي من الجزيرة. إلا أن الوضع العام متكافئ بين الطرفين في الجزيرة[79].

وفي هذه الأثناء وصلت الأنباء عن قيام ثورة ضد الوجود الهرمزي والبرتغالي في جلفار في العام 1621 ، وهي محمية برتغالية محصنة تابعة لمملكة هرمز ، عندما ظهر فيها الأمير قطب الدين الهرمزي والذي أعلن استقلاله عن سلطة عمه ملك هرمز محمد شاه ، وطلب دعم الشاه عباس الذي أرسل له فرقة من الجنود المرتزقة ، مستغلاً سوء الأوضاع السياسية التي تمرّ بها مملكة هرمز والتي أدت إلى ثورات في أغلب مناطق المملكة ، ولا سيما تلك المناطق التابعة لجلفار ، إلا أن القوات المشتركة الهرمزية ـ البرتغالية تمكّنت من استعادة السيطرة على جلفار واعتقال الأمير قطب الدين مع أكثر من ستمائة مقاتل فارسي وتم نفيهم إلى جزيرة قسم. وتم تعيين علي كمال الظهوري قائداً لقلعة جلفار[80].

وبعد وصول الأمير قطب الدين إلى جزيرة قشم ، قام بالاتصال بالشاه عباس والإنكليز لغرض التعاون معه ضد البرتغاليين ، فانضمت البحرية الإنكليزية إلى القوات الفارسية في حملة موجهة ضد قلعة قشم ، لتفرض حصاراً محكماً عليها وإطلاق القذائف المدفعية نحوها ، مما أدى إلى استسلامها[81].

بعد سقوط قلعة قشم قامت القوات الإنكليزية والفارسية بالتوجّه نحو جزيرة هرمز حيث كانت هرمز هدفاً للتجار الإنكليز ، لأنها أكبر الأسواق التجارية الزاخرة بالمال والثروة ، وكانت البضائع تتوارد عليها من الصين وجزر الهند الشرقية ، استعد ملك هرمز محمد شاه للدفاع عن الجزيرة ، إلا أن القوات المهاجمة كانت أكثر كفاءة من حيث العدد والمعدات لتسقط هرمز بيد التحالف الإنكليزي ـ الفارسي في الثالث

([78]) المصدر نفسه ، ص52.
([79]) مذكرات القائد روي فيريرا ، المصدر السابق ، ص 62.
([80]) محمد حميد السلمان ، حكايات من زمن البرتغاليين ،ص 72.
([81]) لوريمر ، المصدر السابق ، ص 37 ـ 44 ؛ مايلز ، المصدر السابق ، ص 186- 187.

والعشرين من شباط عام 1622 ، وبذلك سقطت أحدى أقوى الإمارات العربية المهمة في الخليج العربي[82].

وبذلك انتهى عهد واحدة من أهم الإمارات العربية التي ظهرت في منطقة الخليج العربي والتي ضمت مناطق شاسعة من الخليج على الجبهتين الشرقية والغربية ، إذ عدت هرمز آنذاك من أكبر الكيانات التي شهدتها منطقة الخليج العربي ثراءً وأكثرها ازدهاراً ويعيشون على مستوى عالٍ من الرفاهية ومرجع ذلك الازدهار إلى اتساع دائرة النشاط التجاري الذي كان يمارسه سكان هرمز ، والتي أصبحت الحلقة المهمة في نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وأصبحت مثلاً يُضرَب على الثراء وأطلق عليها لؤلؤة الشرق.

الخاتمة

- من خلال ما ورد في متن البحث، يظهر أن الموقع الستراتيجي الذي تمتعت به لامارة هرمز منطقة الخليج العربي أصبغ عليها أهمية كبيرة في الميزان السياسي الدولي، فأصبحت محط أنظار المستعمرين والغزاة كما تتمتع به هذه المنطقة من خيرات وفيرة، فقد كانت المنطقة العربية وستقبى ملتقى أنظار العالم في كفاحها ضد القوى الأجنبية، تلك القوى التي رأت أن تحرر هذه المنطقة من العالم تحرراً كاملاً يعني القضاء على كل اشكال الاستغلال والتحكم الاستعماري.

- تعد إمارة هرمز واحدة من أقوى الإمارات العربية من الناحية الاقتصادية ، والتي ظهرت في منطقة الخليج العربي خلال القرن العاشر الميلادي، وأصبحت مثال يضرب بها في الثراء حتى اطلق عليها لؤلؤ الشرق ومرجع ذلك الازدهار إلى اتساع دائرة النشاط التجاري الذ كان يمارسه سكان هرمز ، حتى غدت الحلقة المهمة الرئيسية في نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب، إلا أن هذا الازدهار إلى انتكاسات الأولى في القرن الثالث عشر عندما وصل المغول إلى المنطقة الأمر الذي أثر بصورة كبيرة على النشاط التجاري للمدينة مما أدى إلى تغيير موقعها إلى جزيرة جيرون والتي أطلق عليها فيما بعد جزيرة هرمز، أما الانتكاسة الثانية فكانت مع وصول الاستعمار البرتغالي للمنطقة وأصراره على فرض السيطرة البرتغالية على كافة منافذ التجارة العربية في المنطقة فكانت هرمز واحدة من أهم هذه المنافذ لتبدأ مرحلة جديدة في مقاومة الاستعمار البرتغالي في منطقة الخليج العربي تحت قيادة هرمز، أظهر فيها العرب دوراً مشرفا رغم الإمكانيات المتواضعة لديهم.

([82]) مذكرات القائد روي فيريرا ، المصدر السابق ، ص 113